مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة–الجزائر.

المجلد:01 . العـدد: 05 . السنة 2021، ص 50– 66
ISSN 2661-765x

اللّغة مقوم جوهري في تشكيل الهوية

Language is an essential ingredient in shaping identity

د. رضوان نحال*

جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال (المغرب).

البريد الإلكتروني: redouannahal81@gmail.com

ملخص البحث

سنحاول في هذه الورقة مناقشة بعض القضايا المرتبطة باللغة وعلاقتها بالهوية، مستعرضين الدور الذي تضطلع به اللغة في رسم ملامح الهوية الذاتية، من خلال الفرص التي تتيحها لإثبات هذه الذات وتحقيق وجودها. ومحاولين الدفاع عن الموقف الداعي إلى تعزيز المواطنة اللغوية، والالتفات إلى اللغة الوطنية، واعتبارها شرطا من شروط الوجود، وأداة لإنتاج المعرفة وتطويرها.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الهوية، اللغة الوطنية.

Abstract:

This paper seeks to discuss some of the issues related to language and its relationship to identity. It will try to argue in favor of the role that language plays in portraying the identity of the self, throughout the chances that it provides to justify this self and achieve its existence. The paper's argument will, therefore, try to defend the position that calls for the promotion of a linguistic citizenship and pay attention to the national language while considering it a condition for the existence, as well as a tool for producing and developing knowledge.

Keywords: language; identity; national language.

* المؤلف المرسل: د. رضوان نحال redouannahal81@gmail.com

مقدمة:

يبتغي هذا البحث مناقشة قضية العلاقة بين اللغة والهوية، والكشف عن الدور الذي تضطلع به اللغة في تحقيق الوجود، وتشكيل الملامح الأساسية المعبرة عن طبيعة الذات الفردية، ومحاولة التأكيد أن الالتفات إلى اللغة الوطنية مطلب استراتيجي لتحصين مقومات الهوية الوطنية.

وعليه، فإن إشكالية البحث تكمن في تبيان حدود العلاقة بين اللغة والهوية، وتنبثق عن هذه الإشكالية أسئلة فرعية، نذكر منها كالآتي:

من نحن؟ وما دور اللغة في تشكيل الهوية الذاتية؟ وهل تعد اللغة الوطنية شرط وجود، وأداة لإنتاج المعرفة؟

ولعل الإجابة عن هذه الأسئلة تكتسي أهمية كبرى، وذلك لأن قضية اللغة في علاقتها بالهوية رهان كل مسؤول وغيور على ذاته ووطنه وحضارته، غير مفرط في تركة ماضيه، ولا ساهيا عن إغناء حاضره. إن الحديث عن علاقة اللغة بالهوية ليس ترفا فكريا، بل هو أمر مصيري يحسم في طبيعة العلاقة التي بربطها بذواتنا ومعرفتنا ووطننا.

ومن أجل فحص إشكالية البحث، ومختلف الأسئلة الجزئية المتفرعة عنها، ارتأينا اعتماد المحاور الآتية:

- **المحور الأول** : تحديدات مفهومية؛
- **المحور الثاني**: اللغة وعلاقتها بالهوية الفردية؛
- **المحور الثالث**: اللغة الوطنية واكتساب العلوم.

01. تحديدات مفهومية

تعتبر المفاهيم الشائعة الأكثر صعوبة في التعريف؛ وذلك لارتباطها بمجالات معرفية مختلفة، وأن تحديدها مرتبط بسياقات متغيرة، وبالطبع تنطبق هذه الملاحظة كثيرا على مفهومي: اللغة والهوية.

1.1. مفهوم اللغة

إن مفهوم اللغة من المفاهيم التي شغلت اللغويين قديما وحديثا، وذلك لارتباط اللغة بالإنسان ارتباطا وثيقا. وبالعودة إلى تراثنا العربي نجد ابن جني يعرف اللغة بكونها: « هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] ، يتضمن هذا التعريف بعدين أساسيين؛ بعد معرفي يعكس دور اللغة في نقل المعارف والأفكار والأحاسيس والمشاعر...وبعد وجودي يثبت أن اللغة خاصية إنسانية؛ وبتعبير آخر فإن اللغة تتضمن العناصر الأساسية الآتية: الطبيعة الصوتية للغة، والوظيفة التعبيرية أو التواصلية، والعشيرة اللغوية التي تستخدم هذا النسق الصوتي، ثم الهدف من النشاط اللغوي والمتمثل في نقل الأغراض: الأفكار والمشاعر والأحاسيس..

إن تعريف ابن جني – على قدمه- يحظى بالاهتمام والإشادة من لدن الباحثين اللسانيين المعاصرين؛ وذلك لكونه يكشف عن وعي ابن جني بالطبيعة الاجتماعية للغة، وقيمتها النفعية التعبيرية.

ويقدم ابن خلدون تعريفا متقدما لمفهوم اللغة بالقول: « اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعلٌ لسانيٌّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملَكة متقررة

[1] ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، الجزء الأول، ص: 33.

في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كلّ أمة بحسب اصطلاحاتهم»[2]. يتبين من هذا التحديد أن اللغة ظاهرة اجتماعية، تضطلع بدور وظيفي من خلال إيصال ما يقصد المتكلِّم.

أما مفهوم اللغة في الدرس الحديث، فقد تعددت تحديداته بتعدد المقاربات، وفي هذا الإطار يمكن تصنيف الدرس اللساني إلى اتجاهين: اتجاه صوري يصف بنية اللغة (صوتا، وصرفا، وتركيبا، ودلالة) ولا يتعداها، واتجاه آخر يدرس اللغة في علاقتها بالوظائف التي تؤدّيها داخل المجتمع. والجدير بالذكر أن فردناند دي سوسير ميز بين اللغة Langage الملكة الفطرية التي يتقاسمها كل البشر، وبين اللسان Langue الإنتاج المجتمعي الحادث عن ملكة اللغة.

وإذا استحضرنا ما تركه سوسير نجد تعريفين متكاملين لمفهوم اللغة/ اللسان؛ ففي التعريف الأول اعتبر اللسان «حدثا اجتماعيا»[3]، أما الثاني فقد أثبت فيه أن اللسان « منتَج اجتماعي»[4]. ومفاد هذا التصور السوسيري أن اللسان معطى اجتماعي. ونظرا لأهمية اللسان عند دي سوسير فقد تعددت مواطن الحديث عنه في محاضراته اللسانية، بحيث يقول في موضع آخر أن اللسان يتضمن «جانبين؛ فردي وجماعي»[5]. ونتيجة لذلك فقد ميز دي سوسير بين الكلام واللسان؛ أي بين ما هو فردي متغير ومتنوع، وبين ما هو جماعي ثابت[6]، فالكلام بالنسبة له « فعل فردي إرادي»[7]، أما اللسان فهو: « بنية لسانية لأفكارنا وتصوراتنا»[8].

---

[2] ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، الجزء الثاني، ص: 295.

[3] De Saussure, Ferdinand, *Cours de linguistique générale*, Publié par Charles Bally et Albert Séchehaye, éditions Payot, Paris, 2005, p. 21

[4] المرجع نفسه، ص: 25.

[5] De Saussure, Ferdinand, *Cours de linguistique générale*, p. 24

[6] صفة ثابت المرتبطة باللغة لا تعني بالضرورة أن اللغة غير قابلة للتغيير والتطور، بل تتغير من مجتمع إلى آخر، ومن حقبة إلى أخرى، بناء على ارتباط اللغة بقوانينها.

[7] De Saussure, Ferdinand, *Cours de linguistique générale*, p. 30

[8] المرجع نفسه، ص: 37.

إن هذا التصور البنيوي الذي قدمه دي سوسير حول مفهوم اللسان قد أثبت أن هناك بعدين أساسيين للسان؛ بعد يمثل الطابع الاجتماعي للغة، وبُعد البنية الداخلية للسان (القوانين والقواعد والعلامات اللسانية).

أما اللغوي الأمريكي نعام شومسكي رائد النحو التوليدي التحويلي فقد اعتبر اللغة (=اللسان) «مجموعة من الجمل غير محدودة العدد، وكل جملة منها محدودة الطول مصوغة من مجموعة من العناصر المحدودة»[9]. يستفاد من هذا التعريف أن اللغة تتسم بخاصية الإنتاجية؛ أي أن المتكلم يستطيع من عناصر محدودة أن يبدع عددا غير محدود من التركيبات لم يسبق له أن سمعها من قبل.

وإذا كانت اللغة في الاتجاه الصوري بنية مجردة، أي مجموعة من الجمل تربط بين مكاناتها علاقات صرفية، وتركيبية، ودلالية، فإن الاتجاه الوظيفي يعتبر اللغة (=اللسان) «أداة تُسخر لتحقيق التواصل داخل المجتمعات البشرية، بحيث تعد العبارات اللغوية، مفردات كانت أم جملا، وسائل تستخدم لتأدية أغراض تواصلية معينة وتقارب خصائصها البنيوية على هذا الأساس»[10].

وفيما يلي توضيح لمفهوم أداتية اللغة حسب الدكتور أحمد المتوكل:

إذا تأملنا المثالين التاليين:«

(1)

أ- أعطيت هندا كتابا

ب- كتابا أعطيت هندا (بنبر "كتابا")

[9] Chomsky,Noam ,*Syntactic Structures* (The Hague: Mouton, 1957), p. 13

[10] المتوكل، أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط- المغرب، 2006، ص: 20 (بتصرف).

نجد أن الفرق بين الجملة (1أ) والجملة (1ب) في المقاربة الصورية هو فرق بنيوي صرف يكمن في أن المكون المفعول في الجملة الأولى يحتفظ بموقعه الأصلي بعد الفعل في حين أنه يرد في الجملة الثانية محتلا للموقع الصدر أي قبل الفعل.

أما الفرق بين هاتين الجملتين في أي مقاربة تعتمد مبدأ أداتية اللغة فإنه فرق في القصد أولا يعكسه الفرق البنيوي.

فتأخير المفعول في الجملة الأولى يعلله أن القصد من إنتاج هذه الجملة إخبار المخاطب بمعلومة " جديدة" غير متوافرة لديه في حين أن تصديره في الجملة الثانية آيل إلى أن القصد من إنتاجها تصحيح إحدى معلوماته باعتبار هذه الجملة ردا على الجملة (2):

(2) – بلغني أنك أعطيت هندا قلما»[11].

1.2. مفهوم الهوية:

يعد مفهوم الهوية واحدا من المفاهيم التي تتسم بالدينامية، والتغير، وعدم الثبات؛ نظرا لاستخدامه في مجالات معرفية مختلفة. وتعدد الموضوعات التي يطرحها المفهوم فرضت تعددا في التعريفات.

إذا تفحصنا الإنتاج العربي على المستوى المعجمي يتبين أن المعاجم اللغوية القديمة تخلو من لفظة الهُوية. وفي ظل المثاقفة الحادثة مع الفكر الغربي ظهر مفهوم " الهوية " في الفكر العربي ليحمل دلالة مفهوم "identité" الفرنسي، أو "identity" الإنجليزي، وفي هذا السياق، تقترح المعاجم المعاصرة بعض التعريفات المختصة لمفهوم الهوية، فقد جاء في "المعجم الوسيط" الصادر عن مَجْمَعِ اللُّغة العربية بالقاهرة بصدد كلمة "هوية" ما يلي: « الهُوِيَّةَ بطاقة يثبتُ فيها اسمُ الشَّخص وجنسيتهُ

[11] المتوكل، أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط– المغرب، 2006، ص: 20.

ومولدهُ وعمله»[12]، كما يُعرِّفها، فلسفياً، بأنها: « حقيقة الشَّيء أو الشَّخص التي تميزه عن غيره»[13].

وورد في المعجم الإنجليزي" أكسفورد Oxford ما يلي: «الهوية هي الخصائص التي تجعل الشخص أو الشيء هو هو the characteristics determining who or what a person or things is »[14] وبهذا المعنى تصبح الهوية مرادفة لماهية الشخص أو الشيء.

وفي محاولة لضبط المفهوم ندرج تعريف جون جوزيف John Joseph الذي اقترح تحديدا مقتضبا لما ورد في المعاجم اللغوية الأجنبية بخصوص كلمة هوية، بحيث قال: « يوجد مظهران أساسيان لهوية شخص ما، أولهما اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما ذاك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيدا وعمقا الذي يشكل ماهية المرء، والذي لا نملك كلمة دقيقة تصفه»[15].

أما اصطلاحا فينبغي التأكيد أن مفهوم الهوية يتعالى عن الحسم، ويتميز بصعوبة التحديد، وذلك لكونه مفهوما تعددت بشأنه الآراء والمواقف، وفي هذا الإطار أكد إريك إريكسون أن «مفهوم الهوية منتشر في كل مكان، لكنه غامض ولا يسبر غوره أيضا»[16]. ورغم هذا التخوف والحذر من تحديد المفهوم، فإن الضرورة المعرفية تقتضي الإحاطة بماهيته. وفي هذا الصدد يعرف عزالدين المناصرة الهوية قائلا: « الهوية هي مجموع قوائم السلوك واللغة والثقافة التي تسمح لشخص أن يتعرف على انتمائه إلى جماعة اجتماعية والتماثل معها، غير أن الهوية لا تتعلق فقط بالولادة، أو

[12] إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1972، ج2، ط2، ص: 998.

[13] المرجع نفسه، ص: 998.

[14] *Oxford Advanced Learner's Dictionary of current English*, Oxford University press, new 7th edition, p. 737

[15] جون، جوزيف، "اللغة والهوية، قومية – إثنية – دينية"، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، غشت 2007، العدد 342، ص: 18.

[16] هنتنغتون، صموئيل، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة: حسام الدين خضور، دار الرأي للنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2005، ص: 37.

بالاختيارات التي تقوم بها الذات، لأن تعيين الهوية سياقي ومتغير»[17]. في هذا التعريف جرى التأكيد أن هناك مقومات رئيسة تتضافر لتشكيل هوية الإنسان، ولعل أهمها: السلوك، والثقافة، ثم اللغة.

ويرى محمد عابد الجابري أن «الهوية وجود وماهية، وفي المجال البشري، مجال الحياة الاجتماعية على الأقل، الوجود سابق للماهية دوما، الشيء الذي يعني أن الماهية ليست معطى نهائيا بل هي شيء يتشكل، ويشيء، ويصير»[18].

حاصل النظر فيما مضى أن الهوية هي مجموع الصفات والخصائص المميزة للفرد أو الجماعة، وأن الخصائص المكتسبة في الهوية مرنة، وتتكون باستمرار، وقابلة للتحول والتغير تبعا لتغير العالم (تغير بعض العادات مثلا)؛ وبمعنى آخر إن الهوية خاضعة للمراجعة المستمرة.

02. اللغة وعلاقتها بالهوية الفردية

يقترن الحديث عن الهوية دراسة مداخلها الأساس: اللغة، والمكان، والثقافة، والدين، والأسرة، والإعلام،... ولعل المدخل الأقدم إلى الهوية هو المدخل اللغوي.

ومن الأمثلة التي تؤكد الصلة الوثيقة بين اللغة والهوية نذكر:

2.1 الضمائر:

سنخصص الحديث عن الصيغ اللغوية التي توظف للإحالة أو الإشارة، ونخص بالذكر الإشارات الشخصية المتمثلة في الضمائر الدالة على الذات المتكلمة سواء أكانت متصلة أو منفصلة، حيث إن المتكلم يستخدم في بعض السياقات التلفظية مثلا ضمير المتكلم المفرد «أنا"، وضمير المتكلم الجمع" نحن"، أو التاء المؤشرة على الذات الفاعلة (قرأت– كتبت) أو الضمير المعبر عنه بياء المتكلم

[17] المناصرة، عز الدين، الهويات والتعددية اللغوية (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، دار مجدلاوي للطباعة والنشر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2004، ص: 24.

[18] عابد الجابري، محمد، مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1997، ص: 10.

في العبارات التالية (علمني أبي[19] – زارني– لي– كلامي– أكرمني...)، ويمكن أن تكون هذه الياء مصحوبة أحيانا بنون الوقاية (إنّني)، فضلا على أن هذه الياء توحي بالصلة الوثيقة بين الذات الفردية والذات الجماعية.

هكذا، يمكن القول، إن الهوية الذاتية تبرز في التحقق اللغوي، وقدرة المتكلم على الإشارة إلى ذاته بإحدى الإشارات الشخصية التي تعيّن حضوره ووجوده سياقيا في العملية التواصلية. وبتعبير آخر فقد تتحقق العلامة الوجودية بين العلامة الإشارية (الإشارية الشخصية خاصة) وما دلت عليه.

2.2 بصمة الصوت:

أضحت بصمة الصوت من أهم المميزات التي ينفرد بها كل إنسان عن غيره؛ وذلك لأن الصوت هو تعبير دقيق عن شخصية الفرد، ولا غرابة في استخدام الإنسان الصوت بدلاً من كلمات السر، أو اعتماد بصمة الصوت في الكشف عن الجرائم والإثبات الجنائي في حالة توفر المادة الصوتية. وتتم دراسة بصمة الصوت عبر ثلاث طرق:

–الطريقة الإصغائية، وتستخدم من خلال قيام المتخصصين بالاستماع إلى الصوت وربطه بمتكلمه المحتمل؛

–الطريقة الآلية، وذلك من خلال الاستعانة ببعض البرامج الإلكترونية في تحليل الصوت؛

– الطريقة المرئية، وذلك من خلال الاعتماد على الرسوم والصور التي يقدمها المخطط المرئي Spectrographe للصوت البشري.

2.3 اللغة: خيط ناظم بين الهوية الفردية والهوية الجماعية

إن للغة دور أساسي في رسم ملامح الهوية الذاتية، من خلال الفرص التي تتيحها لإثبات هذه الذات، وتحقيق وجودها، والتعبير عما تكتنزه من مشاعر وعواطف وانفعالات. إن « اللغة

[19] علمني أبي: الياء في الفعل (علمني) في محل نصب مفعول به، وفي محل جر مضاف إليه في (أبي).

ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي تعبير عن فكر الذات المتكلمة وإدراكه للعالم»[20]، ويترتب عن هذا الكلام، أن اللغة مقوم جوهري في تشكيل الهوية وإثبات الذات.

وبالعودة إلى التمييز الذي اقترحه دي سوسير بين اللسان والكلام، فإننا سنخصص الحديث عن الجانب الفردي الإرادي المرتبط بذكاء الفرد وقدراته الذاتية على استخدام الرموز والعلامات اللسانية في سبيل التعبير عن أفكاره. لنأخذ، على سبيل المثال، قول الشاعر الفلسطيني محمود درويش في قصيدة " مديح الظل العالي:"

كل الشعوب تزوجت أمي

وأمي لم تكن إلا لأمي

يتبين من خلال هذه الكلمات الموحية أن هناك توحدا والتحاما بين الذات الفردية والذات الجماعية، وينتج عن هذا الالتحام ذاتا ثقافية مشتركة؛ إن كلام محمود درويش يبوح بهويته، كما يبوح موقفه من الآخر عن جانب من هذه الهوية. وقياسا على ذلك، فإن الفرد لا يستطيع أن يكوّن هوية دون وجود الآخر، فانتماء الفرد يُحدَّد بداية من اسم الأب.

03. اللغة الوطنية واكتساب العلوم:

حيثما حضرت اللغة حضر الوطن، فاللغة هي المعقل والرباط، ورمز الهوية والحضارة والسيادة، ولذلك ظل الغرب متشبثا بلغاته، لا يعتز ولا يرضى التلفظ بغير لغاته إلا إذا كان مضطرا، بل يسعى جاهدا إلى توسيع نطاقها على حساب اللغات الوطنية للمستعمرات، ثم فرض وصايته وواقع التبعية من خلال أدواته الثقافية، المتمثلة، مثلا، في منظمة " الفرانكوفونية La Francophonie". وقد أشار العقاد إلى تلك الحملات المغرضة الموجهة ضد العربية بقوله: «الحملة على لغتنا الفصحى حملة على كل شيء يعنينا، وعلى كل تقليد من التقاليد الاجتماعية

[20] Ducrot, Oswald et Jean-Marie Schaeffer: Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Éd. du Seuil, 1995, p. 778

والدينية، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة؛ لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقي للعربي المسلم قواما يميزه في سائر الأمم، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم، فلا تبقى له بقية»[21]. هكذا يكتسب الإنسان العربي إنسانيته باللغة العربية؛ لأنها حاملة لهويته وشخصيته في الماضي والحاضر والمستقبل.

ومن النماذج التي عرفت قيمة العربية، وفطنت لأهميتها نذكر الأديب اللبناني أمين الريحاني «الذي هجر بلاده وهو في العاشرة من سنه، وسبقت لغة شكسبير لغة أبي العلاء إلى لسانه وقلمه، ثم وقع في صراع بين لغتين، وإذا هو يعبر عن حيرته بقوله: "فإن كانت الإنجليزية في دمي، فلغة سيبويه في عظامي"، لكنه سرعان ما ثاب إلى أمومة العربية لما تذكر لبنان العربي، وأنشأ يقول: " أحب لغتي ووطني لأنني أحب نفسي (...) إلى أن يقول مخاطبا الأم اللبنانية: علمي أبنائك محبة الوطن الحقة. قولي لهم إن الأجنبي لا يحترمهم إذا كانوا لا يحترمون أنفسهم. قولي لهم إن الأجنبي لا يحتقر لغة أجداده، بل يحتقر في قلبه من يحتقرون لغة الأجداد. قولي لهم: إن اللسان العربي لسانهم، وأن اللغة العربية لمن أشرف لغات الأرض، فليتعلموها، وليتقنوها، وليعزوزها »[22]. والعربية في حاجة إلى هذا النوع من الاعتراف، والتوضيح، والتوعية.

فلو اعتبرنا العربية صعبة الفهم، وليست اللغة الأنسب للتواصل واكتساب العلوم والمعارف والأفكار.. كما يزعم البعض، لما نطق بها غير العربي وخَبِرَها وامتلك ثراءها وعرف أسرارها، ولنا في ذكر هذه الأسماء أقوى دليل على يسرها، وقدرتها الاستيعابية... «فأبو حنيفة الفقيه (ت 100هـ) فارسي، والبخاري شيخ المحدثين (ت 256هـ) تركي، وسيبويه أبو النحو (ت 183هـ) فارسي، وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية (ت 564 هـ) كردي، ومحمد بن إسحاق أول من

[21] العقاد، عباس محمود، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د. ت)، ص: 30 وما بعدها.

[22] صبحي، الصالح، معالم الشريعة الإسلامية، دار الملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1985، ص:101.

دون السيرة النبوية (ت 151 هـ) فارسي، والطبري شيخ المؤرخين والمفسرين (ت 310 هـ) تركي، وابن سينا أبو الطيب العربي الذي ظلت كتبه تدرس في جامعات أوربا طوال العصور الوسطى (ت428هـ) أفغاني...»[23]

أليس هذا كاف للقول بأن اللغة العربية هي الأنسب لاكتساب المعارف والعلوم بصنفيها الحقة والإنسانية؟

إن اللغة لم تكن عائقا أمام التطور، والبحث العلمي؛ لأن العلوم تطورت بفضل اللغة الوطنية، وإهمال أهل اللغة لغتهم عقبة نفسية، ومغالطات، وأخيلة زائفة ينبغي الحسم معها. وفيما يلي سنورد دراسة علمية تمت الإشارة إليها في الندوة العلمية الموسومة بـ "راهنية تدريس العلوم باللغة العربية في الجامعة المغربية" والمنظمة يوم السبت 24 فبراير 2018 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق بالدار البيضاء، تؤكد هذه الدراسة أحقية تدريس العلوم باللغة العربية، إذ ورد في مداخلة أستاذ طب الأطفال أحمد عزيز بوصفيحة ما يلي: « لقد أجريت دراسة علمية تجيب عن الإشكال التالي: هل تدريس الطب بالعربية يزيد من نسبة التحصيل العلمي؟

قد اقتضى البحث العلمي، في سبيل معرفة سرعة القراءة ومدى الاستيعاب، التواصل مع أفراد العينة التي تضم 124 طالب طب، وطبيب امتياز (يمضي فترة السنة التدريبية بعد التخرج)، وطبيب مقيم (يتخصص في طب الأسرة والمجتمع) في كلية الطب بجامعة الملك فيصل، وذلك خلال العام الدراسي 1992/1991.

نصف أفراد العينة من الذكور والنصف الآخر من الإناث. قسمت كل فئة من الفئات الثلاث (الطلاب، أطباء الامتياز، والأطباء المقيمين) إلى مجموعتين، تشمل كل مجموعة حوالي 20 فردا. وأعطيت كل مجموعة مقالا طبيا لقراءته، نصف المجموعة قرأ المقال باللغة الإنجليزية والنصف الآخر قرأه باللغة العربية.

[23] حسين، محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، 1986، ص: 200.

استغرقت القراءة ثلاثين دقيقة، حدد بعدها كل فرد من أفراد المجموعة السطر الذي انتهى إليه، ثم أجري امتحان قصير للجميع لمعرفة مدى استيعابهم لما قرأوه. بعد أسبوع أعيدت التجربة بأن وزع عليهم مقال آخر باللغتين، الذين سبق وأن قرأوا المقال الأول باللغة الإنجليزية مُنحوا المقال الثاني بالعربية والعكس بالعكس ثم أجري للجميع امتحان، فكانت النتائج على الشكل الآتي:[24]

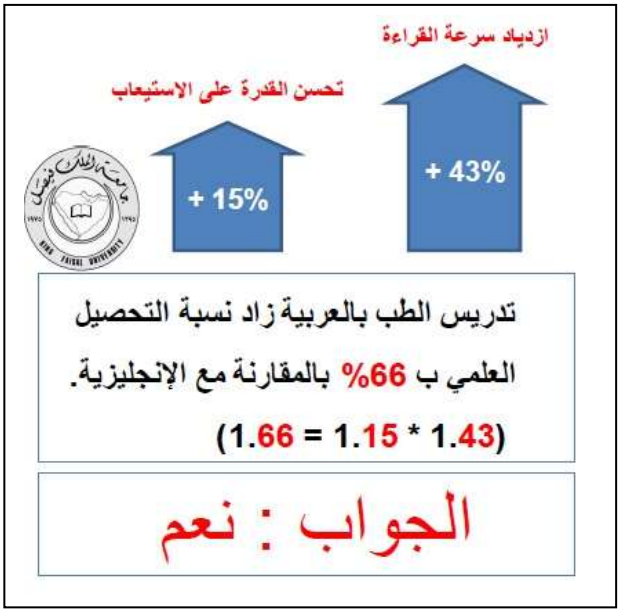

[24] بوصفيحة، أحمد عزيز: أستاذ طب الأطفال بكلية الطب والصيدلة، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، مداخلة بعنوان: الأسس العلمية لضرورة تدريس العلوم بالعربية في المغرب (مثال العلوم الصحية) (بتصرف).

خاتمة:

فلما كانت اللغة وسيلة للنفوذ إلى المعرفة واكتساب العلوم كان من الضروري وجود سياسة لغوية منبثقة عن إرادة حقيقية لدى سلطة القرار، ولدى مختلف الفاعلين في المجتمع، سياسة تحدد الاختيارات اللغوية، وتحفظ هوية المجتمع وخصوصياته، وتعزز مكانة اللغة الوطنية.

لدى يتحتم على واضعي السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي تخطي التمثلات الخاطئة والحملات المغرضة التي تدّعي أن اللغة الوطنية غير قادرة على مواكبة تحديات العصر ومجتمع المعرفة. إنه من المهين هو أن نُعلي من قيمة لغات الآخر إرضاء له، ونبخس لغتنا الوطنية بدعوى أنها لا تفي بحاجيات متكلميها. إن السماح للغة الأجنبية بتجاوز وظائفها الأساس التي من خلالها سُمح لها بالتواجد في النسق اللغوي الوطني، واستمرار إضفاء الجنسية الوطنية على اللغة الأجنبية، سيؤثران لا محالة على الهوية الوطنية.

وسيكون أعز ما يطلب، في ظل الطروحات التي تدعو إلى تبني اللغة الأجنبية في شتى شؤون الحياة وإحلالها محل اللغة الوطنية، تعزيز المواطنة اللغوية، والالتفات إلى اللغة الوطنية، واعتبارها شرطا من شروط الوجود، وأداة لإنتاج المعرفة وتطويرها.

وفيما يلي أهم الخلاصات التي أفضى إليها البحث:

- إن اللغة تمنح الإنسان فرصة إثبات ذاته وهويته من خلال إنجاز أفعال لغوية في سياقات مختلفة؛
- اللغة العربية تحقق وجودنا من خلال الإحساس المشترك بيننا وبين الذين يتكلمونها؛
- ضرورة إعداد سياسية لغوية تستحضر إدماج اللغة الوطنية في مشاريع التنمية الشاملة؛
- الحاجة إلى تبني تخطيط لغوي قائم على تفعيل الاختيارات اللغوية وأجرأتها على أسس صحيحة ومنتجة؛
- البلدان التي تهمل لغاتها الوطنية لهي بلدان تحتقر نفسها، وتحكم على نفسها بالتبعية الثقافية؛

– ضرورة تقديم لغتنا الوطنية على أنها لغة العالم، ليس في إطار التعصب والتحيز، وإنما في إطار مطارحات مضادة لما يقدمه الآخر، لأنه لا مستقبل لمن يستخف بلغته ويستهين بها؛

– التدريس باللغة الوطنية توطين للعلم وتأكيد للهوية؛

– تجاوز المعوقات التي تقف عثرة في سبيل الرقي باللغة الوطنية، وجعلها في موقع الريادة في الوطن، واعتبارها لغة العلم والمعرفة؛

– الحاجة إلى تعزيز مكانة اللغة العربية في المدارس، والمؤسسات الرسمية، ومختلف وسائل الإعلام...

قائمة المراجع المعتمدة:

✓ *العربية*:

- إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1972، ج2، ط2.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، الجزء الأول.
- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، الجزء الثاني.
- حسين، محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، 1986.
- صبحي، الصالح، معالم الشريعة الإسلامية، دار الملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1985.
- عابد الجابري، محمد، مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1997.
- العقاد، عباس محمود، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د. ت).
- المتوكل، أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط- المغرب، 2006.
- المتوكل، أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط- المغرب، 2006.
- المناصرة، عز الدين، الهويات والتعددية اللغوية (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، دار مجدلاوي للطباعة والنشر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2004.
- هنتنغتون، صموئيل، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة: حسام الدين خضور، دار الرأي للنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2005.

■ جون، جوزيف، "اللغة والهوية، قومية – إثنية – دينية"، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، غشت 2007، العدد 342.

■ بوصفيحة، أحمد عزيز: أستاذ طب الأطفال بكلية الطب والصيدلة، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، مداخلة بعنوان: الأسس العلمية لضرورة تدريس العلوم بالعربية في المغرب (مثال العلوم الصحية) ضمن الندوة العلمية الموسومة بـ "راهنية تدريس العلوم باللغة العربية في الجامعة المغربية" والمنظمة يوم السبت 24 فبراير 2018 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق بالدار البيضاء (بتصرف).

✓ ***الأجنبية***:

- Chomsky,Noam ,*Syntactic Structures* (The Hague: Mouton, 1957).
- De Saussure, Ferdinand, *Cours de linguistique générale*, Publié par Charles Bally et Albert Séchehaye, éditions Payot, Paris, 2005.
- Ducrot, Oswald et Jean-Marie Schaeffer: *Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Éd. du Seuil.
- *Oxford Advanced Learner's Dictionary of current English*, Oxford University press, new 7th edition.